

الخطاب التربوي بين السخرية والتلقين في مؤلفات الأخضر السائحي ألوان بلا تلوين وديوان الأطفال -أمودجا-

*The educational discourse between sarcasm and indoctrination
in the writings of Al-Akhdar Al-Saihi.
Colors without coloring and children's Diwan - Example -*

تسعديت بن يحيى

جامعة امحمد بوقرة، بومرداس، (الجزائر)

t.benyahia@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2024/09/30

تاريخ القبول: 2024/08/23

تاريخ الإرسال: 2023/03/16

المخلص:

عمل محمد الأخضر السائحي على أن يجعل من خطابه الشعري والتثري سبيلا للوصول إلى أهدافه التربوية، وإلى تنمية القدرات الفكرية والنفسية للأطفال بلغة راقية وثرية، ساخرة هادفة، كما عمد إلى أن تتخلل أشعاره في ديوان الأطفال صور معبرة بألوان زاهية لشد انتباههم، على عكس ما كان في كتابه ألوان بلا تلوين، حيث حافظ على بعض الرسومات الكاريكاتورية دون ألوان.

تلعّب الألوان دورا مهما في جذب عدد أكبر من القراء، خاصة إذا كانت هذه الفئة من الأطفال، هذا ما يدلّ على أنّ هذين الكتابين -ديوان الأطفال وألوان بلا تلوين- يفتحان ذهن الطفل القارئ على ألوان من التجارب والخبرات في مسائل متنوعة تمس جوانب جوهرية من الحياة، قد تتراوح بين العزوف عن المطالعة لجنس معين كالنكتة والنادرة، أو بالإقدام على المطالعة وحفظ الأناشيد في استراتيجية بصرية تدفع الطفل إلى ممارسة فعل القراءة بنفسه والاطلاع بشغف على ما يلي من الصفحات.

الكلمات المفتاحية:

خطاب السائحي التربوي؛ دلالة العنوان وعلاقته بالمتن؛ علاقة ألوان بلا تلوين وديوان الأطفال؛ القيم الفنية الموجهة للطفل.

Abstract:

Muhammad al-Akhdar al-Saihi sought to make his poetic and prose discourses a way to achieve his educational goals and develop the intellectual and psychological abilities of children in an easy, elegant and rich language, sarcastic and purposeful at the same time.

He relied on colors in his book « Diwan El Atfal » to attract children's attention. In contrast to his other book: "Colors without Coloring" which is Colorless Where he kept some drawings without colors. This indicates the relationship between the form of the book and its content and its important role in stimulating attention of the largest number of readers especially children.

These two poetic books open the mind of the child reader, to different kinds of experiences and expertise in various issues related to essential aspects of life, it may range from moving away from reading for a specific type, such as jokes and anecdotes, or by turning to reading and memorizing songs. through a visual strategy that motivates the child to practice the act of reading by himself and to read with passion the following pages.

Keywords:

Al-Saihi's educational discourse; A relationship of colors without coloring and the children's Diwan; Child-oriented artistic values; The title and its relationship to the text.

1. مقدمة:

المعروف عن السّائحي -شاعر العرب- أنه قامة من قامات الشّعر الجزائري، المفعم بكتابات الوطنيه الموجهة لفئة الأطفال، هو الرجل الجزائري المناضل ابن مدينة "تقّرت"، تظهر وطنيته جليًا في أشعاره خاصة في ديوانه الأول **همسات وصرخات** الذي امتاز بأسلوب سهل ومؤثّر، وقد خصّص ديوانا كاملا من أعماله للأطفال وأسماه **ديوان الأطفال**، ناقش فيه مختلف اهتمامات الطفل وما ينطوي عليه عالمه الخاص من أفكار وخيال، كما حاول من خلاله زرع حب الوطن في قلب الطفل في أناشيد عديدة ومتنوعة دارت مواضيعها حول: الوطن، الدين، الأسرة، المجتمع، الحماسة، الطبيعة...

إلى جانب كتاباته الشّعرية، نجد **الأخضر السّائحي** مُنتجا للعديد من البرامج الإذاعية الجزائرية، قبل وبعد الاستقلال، حيث قسّم وقته بين التدريس والإنتاج الأدبي، والعمل الإذاعي في برنامجه ألوان الذي امتدّ إلى أكثر من عشرين سنة بالقناة الأولى، وبرنامج نماذج رفقة صديقه عثمان بوقطاية أين قام بتوظيف النّكتة المعاصرة حيناً والتاريخية أحيانا أخرى لمعالجة المظاهر السّلبية في المجتمع، وهذا ما يدلّ على اهتمام الشاعر بجانب من أشكال الأدب الشعبي.

وقد قام بعدها بجمع وتدوين تلك النّكت وروائع القصص المضحكة والسّاخرة في كتاب عنوانه "ألوان بلا تلوين"، قسّمه إلى عدّة مواضيع منها: نواذر ونكت الأغبياء وأخرى للأذكىاء، نواذر ونكت اللّصوص، نواذر البخلاء...

لمع وسطع اسم السّائحي في السّاحة الأدبية من خلال إنتاجه الموجه لفئة الأطفال، حيث لقيت قصائده صدى واسعا في المدارس التّعليمية الابتدائية الجزائرية في فترة الثمانينيات.

ومن هذا المنطلق؛ تبادرت إلى ذهننا فكرة الاشتغال على الكتابين ألوان بلا تلوين وديوان الأطفال، الموجهين إلى فئة الأطفال بلغة راقية تعليمية من جهة، وساخرة هادفة من جهة أخرى. حيث أردنا الموازنة بين الكتابين في قراءة فاحصة وسريعة، بدءًا من قراءة في سيميائية العنوان ودلالاته المعجمية والتركيبيّة، ثم ربطها بالمحتوى؛ وذلك بغرض الوقوف على طبيعة الخطاب التربوي في المؤلفين، في محاولة للإجابة عن الإشكالية الآتية: هل فعلا

كتابي السائح الموجهين للأطفال ألوان بلا تلوين نوادر ونكت ساخرة تنقد المجتمع، وديوان الأطفال من الشعر الفصيح التربوي والتعليمي؟

هل هذا ما يرمز إلى العلاقة المتنامية بين المؤلفين والتناص بينهما؟ ما دام الأول حاملا لمجموعة من الأشكال الفنية القصيرة -النكت- من حيث الشكل، وعنوانه دليل على تلك المضامين المختلفة لكنها بلا تلوين، والثاني مكثف بالألوان وبالأنشيد الشعرية التربوية. إذن فكتاب ديوان الأطفال جاء مواليا بفترة بعد كتاب ألوان بلا تلوين، وفق نماء القدرات العقلية للطفل واكتشافه العالم بألوانه وأشكاله.

هذا ما يستدعي منا الوقوف على الشكل الخارجي ومحتوى الكتابين، وبتقديم بعض أشكالها من النوادر ومن القصائد التربوية بصفة مبسطة وسريعة. وكذلك لاستخلاص العلاقة بين الكتابين والأمر الذي سعى من خلالهما السائح إلى بثه في روح الطفل الجزائري خاصة والعربي عامة.

1. قراءة في دلالة العنوان:

شغل تفكير النقاد والدارسين، في مجال السيميائيات المعاصرة العديد من القضايا المحيطة بالنص الإبداعي من أهمها العنوان الذي يشكل العتبة الأولى، والرئيسة للنصوص الأدبية، واللقاء الأول بين القارئ والنص في جذب انتباهه، فيفرض عليه تفحصه ودراسته قبل الخوض في أعماقه والبحث في خفاياه، حيث أشارت إليه "بشرى البستاني" في قولها: "العنوان رسالة لغوية تعرف بتلك الهوية وتحدد مضمونها، وتجذب القارئ إليها، وتغريه بقراءتها، وهو الظاهر الذي يدل على باطن النص، ومحتواه"¹ إذ يمكن من خلاله تحديد هوية العمل الإبداعي وموضوع متنه، ولمعرفة دلالاته ومعانيه يجب علينا دراسته معجميا، دلاليا وتركيبيا، "سواء كان العنوان كلمة أو جملة أو جملتين، فإن التفصي الدلالي للألفاظ يعتبر خطوة لا بد منها، وذلك بالعودة إلى المعجم"². ولما كان للعنوان هذه الأهمية اخترنا أن تكون بداية دراستنا النظر في عنوان كتابي محمد الأخضر السائح أنموذج البحث؛ مروراً بجميع مراحل قراءاته المعجمية والدلالية والتركيبية.

1.2 سيميائية عنوان "ألوان بلا تلوين":

يتصدر العنوان صفحة الغلاف تحت اسم الكاتب مباشرة، يتكون من مسند ومسند إليه: "ألوان" جاءت مبتدأً و"بلا تلوين" جاءت جارا ومجرورا منقيا. وتحت العنوان مباشرة نجد رسمة كاريكاتيرية دون ألوان لشيخ يدخن "النارجيلة"، ومن ورائه على اليسار رجل بزي تقليدي شرقي يقرأ من كتاب للعجوز الجالس، وفي أعلى الغلاف وأسفله من الجهتين نجد صورا أخرى دون ألوان البتة، وفي الغلاف الخلفي صورة لشيخ بلحية طويلة يعتلي كومة كتب ويقرأ كتابا بانتباه مفرط.

2.1.2 المستوى المعجمي:

نجد معنى لون في لسان العرب لابن منظور بمعنى: "اللَوْنُ: هَيْئَةٌ كَالسَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ، وَلَوْنُهُ فَتَلَوْنَ. وَلَوْنٌ كُلُّ شَيْءٍ: مَا فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَالْجَمْعُ أَلْوَانٌ؛ وَقَدْ تَلَوْنَ وَلَوْنٌ وَلَوْنُهُ. وَالْأَلْوَانُ: الضَّرْبُ. وَاللَوْنُ: النَّوْعُ. وَقُلَانٌ مُتَلَوْنٌ إِذَا كَانَ لَا يَثْبُتُ عَلَى خُلُقٍ وَاحِدٍ. وَاللَوْنُ: الدَّقْلُ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّخْلِ؛ قَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ جَمَاعَةٌ وَاحِدُهَا لِينَةٌ، وَلَكِنْ لَمَّا انْكَسَرَ مَا قَبْلَهَا انْقَلَبَتْ الْوَاوُ يَاءً؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ؛ قَالَ: وَتَمَرُهَا سَمِينُ الْعَجْوَةِ. ابْنُ سَيِّدَةٍ: الْأَلْوَانُ الدَّقْلُ، وَاحِدُهَا لَوْنٌ، وَاللِينَةُ وَاللُونَةُ: كُلُّ ضَرْبٍ مِنَ النَّخْلِ مَا لَمْ يَكُنْ عَجْوَةً أَوْ بَرْنِيًّا. قَالَ الْفَرَّاءُ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ النَّخْلِ سِوَى الْعَجْوَةِ فَهُوَ مِنَ اللَّيْنِ، وَاحِدَتُهُ لِينَةٌ، وَقِيلَ: هِيَ الْأَلْوَانُ، الْوَاحِدَةُ لُونَةٌ، فَقِيلَ لِينَةٌ، بِالْيَاءِ، لِانْكَسَارِ اللَّامِ؛ قَالَ ابْنُ سَيِّدَةٍ: وَالْجَمْعُ لَيْنٌ وَلَوْنٌ وَلِيَانٌ.³ هذا ما يخص المعنى الدلالي أو المعجمي للفظ "ألوان".

3.1.2 المستوى التركيبي:

يتكون العنوان كما سبقت الإشارة من مسند "بلا ألوان" ومسند إليه "ألوان" وهو جمع "لون" الذي يحيل في المستوى المعجمي إلى ذلك الأثر الذي تتركه صبغة الأشياء على العين عن طريق النظر، فالألوان هي الأصباغ المتدرجة والتي تعني أيضا: "الأنواع" حيث تحيل إلى اختلاف الأشياء داخل إطار مفاهيمي معين كقولنا: ألوان من الأشجار، بمعنى أنواع مختلفة تتدرج كلها ضمن صنف الشجر. وجاءت كلمة "ألوان" جمعا واسم علم، مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره لأنه جمع تكسير. ومن دلالات الابتداء الصدارة والوجاهة والأهمية والتعريف، ولهذا جاءت دلالاته السيميائية البصرية ملونة، إذ يلاحظ في الغلاف

تلوين كلمة "ألوان" واسم الكاتب "محمد الأخضر السائحي"، بغرض التعريف وإبراز وتوكيد الأغراض الدلالية والحمولة السيميائية. فمن طبيعة الألوان البروز والظهور وهو أحد مقومات الهوية في أصناف الأشياء والكائنات، يقال مثلاً: الجنس الأصفر ويقصد به الشعب الشرقي لآسيا والجنس الأحمر هم الهنود والجنس الأبيض يراد بها الأوروبيون والجنس الأسود للدلالة على الأفارقة. فاللون يُقدم هوية الشيء ويبرزه ويلفت الانتباه إليه.

بينما جاء المسند "بلا تلوين" جارا ومجرورا منفياً بـ "لا" على وزن "تفعيل" مصدر "فعل"، ودلالة هذا الميزان الصرفي تحقيق ذات الشيء على الواقع أي تحقيق صفة التلون لشيء ما محطّ التلون في هذا السياق. فجاءت متوافقة مع هيئتها البصرية في الغلاف فكانت خالية من الألوان لتأكيد هذا النفي، أي نفي نسبة فعل التلون للألوان التي هي أساس عملية التلون.

4.1.2 علاقة العنوان بالمتن:

تبدو علاقة العنوان بالغلاف أكثر انكشافاً ممّا هي عليه في علاقة العنوان بالمتن، حيث يجلي الغلاف أحادي اللون الأبيض المحايد المرسوم عليه بعدد معتبر من الرسومات المعبرة عن مواقف معينة من حياة البشر وتتطوي على أصناف مختلفة من الطبائع الذهنية لهذه الفئات من الناس (لصوص، فقراء، أغنياء، أغنياء، أذكياء، نساء، رجال، أطفال...)، ثم إنّ العلاقة بين العنوان والصورة والتمتدّ عدة دلالات وتأويلات منها أنّ هذا الكتاب يفتح ذهن القارئ على ألوان من التجارب والخبرات في مسائل متنوعة تمس جوانب جوهرية من الحياة هي -أو على الأقل جزء كبير منها- لا تزال صفحة بيضاء في ذهن المتلقي (الناشئة)، ولا تتلون هذه التجارب في أذهان المتلقين إلّا من خلال أمرين هما: عيش التجربة ذاتها في الواقع أو عن طريق الأخيلة، وهذا لا يكون إلّا بالمطالعة وحدها، وفي هذا الصدد نتذكر قول عباس محمود العقاد: "لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة ولكنني أحب الكتب لأنّ حياة واحدة لا تكفيني".⁴

ولذلك جاءت الصورة المركزية في واجهة الغلاف دالة على التفريط في متعة القراءة من أجل متعة أخرى وهي تدخين النارجيلة، في حين تأتي الصورة الخلفية دالة على انقلاب الحال وارتفاع المقام بعد القراءة وبالتحديد بعد قراءة كتاب "ألوان بلا تلوين"، حيث تحولت صورة الرجل الذي يوارى خادمه الممسك بالكتاب خلفه في لغة جسد دالة على التجاهل واللامبالاة، إلى صورة رجل عجوز يعتلي قمة من الكتب مركزا في قراءة كتاب بين يديه، وتدل لحيته الطويلة جدا على طول مجالسة الكتب والزهد فيما سواها وعلى الحكمة التي تتأتى من خلال مطالعة الكتب وتصفح آثار ونوادر وحكم الأولين (التراث الشعبي والرسمي). إذ تبين الصورة الأولى موقع وواقع القارئ العربي من المطالعة والذي تدل عليه الأزياء والنارجيلة العربية، مؤكدة ضعف إقباله على القراءة.

5.1.2 محتوى كتاب ألوان بلا تلوين:

يستهل السّاحي كتابه، بعد التقديم بسؤال: لماذا نضحك؟ ليجيب عنه بعد أخذ وردّ: "الخلاصة أنّ الفكاهة بأنواعها سواء كانت طرفة، أو نكتة أو سخرية وتعريضا (أي بسيطة أو مركبة)، لا تصدر إلّا عن ذكاء وقاد، وعن بديهة حاضرة"⁵.

نفهم من ذلك أنه لا حياة من دون سخرية!! ولا طرفة تُرفّه عنا متاعب الدنيا، كما أنها لا تصدر إلّا عن إنسان عارف حكيم، وهذا ما أكّدته الدكتورة نبيلة إبراهيم في قولها: "النكتة نتاج أدبي ينبع من دافع نفسي جمعي، شأنها شأن الحكاية الخرافية (...). ولكنها تتميز عن هذه الأشكال بأنها قد تعين في يسر على تحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما"⁶.

النكتة إذن، أسلوب حياة أم هي فن أدبي؟ إذ ترجع أصولها إلى نفسيّة الشعوب، فهي شعبية كونها تتبع من صميم الشعب بمختلف عقليّاته وطبقاته، لكنها أيضا خبر قصير في شكل حكاية تثير الضحك، "إنّ النكتة تلاعب بالألفاظ من شأنه أن يصنع معنى مزدوجا، فهناك المعنى الظاهري الذي لا يثير الضحك، إذا استعمل استعمالا مألوفاً، والمعنى الخفي الذي لا يثير الضحك إلّا لكونه مرتبطا بالمعنى الأول"⁷.

النكتة تركيبية لغوية مركبة ومعقدة، هدفها إدراك العبث ومتناقضات الحياة من خلال المعنى المزدوج. كما يقول السائح: "النكتة فنّ، والفن لا بدّ أن يقوم على عنصرين: الشّكل والمضمون، تُعجبنا النكتة إذا صيغت في عبارة لطيفة فيها تلاعب باللفظ كاستعمال التورية مثلاً، ولكنها لا تؤثر فينا التأثير القوي إلا إذا كانت فنية في الجانب الآخر، إذا كان مضمونها قوياً (...). يعني شيئاً آخر غير الضحك، له معنى في حياتنا العامة"⁸.

ولتؤدي النكتة فنيّتها العميقة، يجب أن تكون هادفة رامية إلى المعنى البعيد والعام، فقد تتضمن تعريضاً أو سخرية لاذعة... وهذا ما لاحظناه في محتوى الكتاب، حيث قسّمها السائح إلى عشرة مواضيع بدءاً بطرائف لها علاقة بالمقدّسات، ثم النوادر والنكت، منها التي لها علاقة باللغة، نكت ونوادر الأزواج، ليلحقها بطرائف عن الحموات، ثم نكت الأطفال، نوادر للأذكىاء وأخرى للأغبياء، لينتهي إلى نوادر ونكت البخلاء واللصوص.

أول ما شدّ انتباهنا نمطيّة التوزيع والتقسيم، إذ استهلّها بطرائف المقدّسات والمتعلقة بأمور الدّين والطاعات ليشرع في النكت الدنيوية في شتّى أشكالها المُنبنية على التّضاد، كالتي نجدها بين الأزواج والحموات، ليغوص بعدها في عالم الأطفال بنوادرهم وخرجاتهم الشاذّة، كما يقدّم نوادر الأذكىاء بمقابل نكت الأغبياء، دون أن ينسى حظ البخلاء واللصوص منها.

والملاحظ أيضاً أنّ حجم الطرائف والنكت متفاوت من موضوع لآخر، إذ إنّ حصّة الأسد قدّ خصّصت لنكت الأذكىاء والأغبياء، ثمّ لنوادر الأطفال، تليها نكت ونوادر الزّواج، كما أولى اهتمامه بطرائف لها علاقة بالمقدّسات، وكلّ ما له علاقة بالحموات والبخلاء، كما أدرج نوادر ونكت للغة الفصحى وللصوص. سنقف عند بعضها دون الأخرى، بدءاً بـ :

طرائف لها علاقة بالمقدّسات: جمع فيها السائح نماذج متفرقة، منها التي رويت في كتب الحديث وعن الجاحظ، ومنها ما كانت من تأليف الكاتب أو ما كان متداولاً بين الأوساط الشعبيّة، فنجدّه يمزج بين الشّعور والنثر ويستشهد بالآيات القرآنيّة و ببعض الشخصيات كالخليفة الأمين ومُسليمة الكذاب، لينتج بذلك نوادر أو حكايات وطرائف تراوحت بين الطول والقصر معالجة مواضيع تخصّ الدّين والدّنيا؛ كالإمامة للصّلاة وفي ذلك جاءنا بنادرة قال فيها: "وقف أعرابي للصّلاة فقرأ:

((...ويوسف إذا ألقاه في الجُبِّ عصبَةً *** فأصبح في قعرٍ من البئر ثاوياً...)) فقال له أحدهم: هذا ليس قرآناً، فقال الأعرابي: إذا لم يكن قرآناً فهذا معناه.⁹

أتى السّائحي بهذه الطّرفة، ليذكرنا بواجبات وشروط الإمام المصلي بالنّاس، الذي عليه أن يكون حافظاً لكتاب الله حتّى لا يخطئ أثناء الصلاة، ولا يتعرض للسّخرية والاستهزاء. كما أنّه قد يوجد من المصلين المتطفّلين حتّى وإن كان الإمام عارفاً لما يقرأه أثناء قيام الصلاة، "قرأ الإمام: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللهُ وَمَنْ مَعِيَ...))"، فقال أحد المصلين: يهلكك وحدك".¹⁰

النّوادر والنّكت التي لها علاقة باللّغة: هي نوادر متعلّقة بالنحو واللّغة العربيّة الفصحى، وباختلاف اللّهجات، تراوحت بين الطّول والقصر في شكل مرويات وأقوال مأثورة، حاملة طابع التّرفيه والتّعليم، ولإثراء الرّصيد الثقافي، ومثالها ما ذكره في اسم القط، إذ قال: "حمل أعرابي قطّاً ليبيعه، فمرّ به رجل فقال له: بكم تبّيع القطّ؟ ومرّ رجل ثانٍ فقال له: ما بلغ ثمن هذا الهرّ؟ ومرّ ثالث فقال: أما زلت لم تبّع هذا السنور بعد؟ فأطلقه الأعرابي وقال له: لعنة الله عليك، ما أكثر أسماعك وأقلّ قيمتك".¹¹ منه نتعلّم مرادفات كلمة القطّ ما يدلّ على ثراء اللّغة العربيّة بمرادفات وأضدادها.

نكت الأزواج: موضوعها المرأة والرجل وعلاقتها قبل وبعد الزواج، ركّز فيها السّائحي على لسان المرأة الثّرثار، وتعدّد الزوجات وما ينجرّ عنه من مشاكل...، يقول السّائحي على لسان طفل: "قال الطفل لأبيه الأصلع: لماذا يا أبي لا يوجد شعر في رأسك؟ قال الأب: لأنّي أشتغل برأسي كثيراً. فقال الطفل: لذلك أمّي ليس لها شنبات لأنّها تشتغل بلسانها كثيراً".¹²

أمّا ما جاء على لسان الأمّهات ووصاياهنّ لبناتهنّ، قوله: "قالت الأمّ لابنتها المتزوّجة: الرّجل كالسّلم اصعدي عليه درجة بعد درجة، وكان زوج البنت يسمع... وبدأت البنت تنفّذ تعليمات أمّها وتطبّق نصائحها، وأدرك الرّجل مقاصدها فضربها ضرباً مبرحاً كسر لها ضلعين، وسمعت أمّها فجاءت تجري وسألت الزّوج عن السّبب، قال: إنّها سقطت من السّلم الذي أمرتها بالصّعود عليه".¹³

نكت الحموات: دائما وفي سياق العلاقات الأسريّة نأتي بنماذج السّائحي عن الحموات، التي كثيرا ما ينبذُ تصرفاتها زوج البنت، لدرجة أنّه قد يتمنّى لها الموت، في ذلك قوله: "ركب رجل في قطار معه حماته وحماة أخيه، فطلبت منه واحدة من رجل واقف أن يفتح النّافذة لكي لا تختنق، واحتجّت الثّانية لأنّها تموت لو فُتحت النّافذة... فقال للرجل: اعمل معروفاً، افتح النّافذة مدّة حتّى تموت الثّانية، ثمّ بعد ذلك أغلقها حتّى تموت الأولى".¹⁴

إرضاء النّاس غاية لا تدرك، وباختلاف الأجناس البشريّة تختلف الطّباع والعقليّات، إذ كثيرا ما نسمع عن المشاحنات بين الرّجل وحماته، فما بالك إن كان الوضع متعلق بحماته وحماة أخيه.

نواذر الأطفال: سبق وأن ذكرنا أنّها أخذت حصّة الأسد من الكتاب، فنجد ما هو متعلّق بالأطفال الأشقياء أي الأذكياء، وما هو خاصّ بالأطفال السّدّج، وكما قال السّائحي: "كلا النوعين قابل للإضحاك، ربّما يكون حبّنا للأطفال وعذوبة الطّفولة هي التي تجعلنا نضحك لكلّ تصرف يقوم به الطّفل".¹⁵ نشعر بمصادقيّة الأديب في كلامه، ما يدلّ على الأهميّة التي أولاها لهذه الشّريحة بالذّات من المجتمع، ورسالة التّوعية التي يرغب ببثّها في نفسيّة الطّفل وحتّى الكبير.

ومن سداجة الطّفل، ذكر النّكتة الآتية: "وُجد طفل يعطي دجاجته ماءً ساخناً فسُئل لماذا يفعلُ هذا؟ فقال: لكي تأتي بالببيضة مسلوقة".¹⁶

قد نجد من النّكت التي تُظهر عكس ذلك، من نباهة وفطنة الطّفل: "أنّب أبّ ابنه الصّغير على إهماله دروسه فقال له: أتعلم أن تشرشل كان أنجب تلميذ في المدرسة حين كان في سنّك؟ فقال الطّفل: وتعلم أنّه كان رئيس الحكومة حين صار في سنّك؟".¹⁷

هي نكتٌ طريفة، تُظهر براءة الطّفل وصفاء نواياه، لكنّها تحمل نقداً لاذعاً وساخرأ.

نكت عن الأذكياء والأغبياء: ومما جاء في كتاب ألوان بلا تلوين، "قال الطّبيب للمريض: هل يُضايقك شيء في الوقت الحاضر؟ قال: ثمن الفحص".¹⁸ دلالة على فطنة المريض محاولاً الضّغط على نفسيّة الطّبيب واستمالة مشاعره، لتخفيض ثمن الفحص.

أما عن نكت الأغبياء، فمنها ما جاء على شاكلة القصص الطوال، ومنها القصار كقوله: "قالت السيّدة للخادمة البدويّة: ألم تنتهي بعد من تعبئة الملاحه بالملح؟ قالت الخادمة: من الصّعب جدّا تمرير الملح مع هذه الثّقوب الضيّقة".¹⁹ دلالة على سذاجة الخادمة البدويّة وعدم تحضّرها وعنادها، حيث كان عليها استشارة السيّدة في ذلك.

نوادير البخلاء واللصوص: لطالما ارتبط البخل بالذكاء والاحتيايل بالدّهاء، بغرض إشباع الحاجة على حساب الآخرين، " قال الطّبيب للجزّار المجاور للعيادة: لماذا تقول لكلّ من يسألك عني أنّي غائب وأغلقت العيادة؟ فقال الجزّار: ولماذا أنت تعلّم النّاس البخل وتقول لهم لا تأكلوا اللّحم؟".²⁰

يُعذّ اللّص من أذكى النّاس، يستعمل الحيلة بهدف الوصول إلى السّرقة؛ ومن نماذج ذلك هذه النّكتة: "سأل الصّديق صديقه الذي يعمل في -شركة الحليب-: كم لترًا حلبتم اليوم؟ قال: مائة. قال: وكم بعتم؟ قال: مائة وعشرين فقط. قال: ولماذا فقط؟ قال: لأنّ الماء كان مقطوعًا اليوم".²¹

يمكننا القول؛ إنّ نكت ونوادير السّائحي هادفة، عالجت قضايا مشتركة مصوّرة بذلك واقع الوطن العربي عامّة والجزائري خاصّة، جاءت ساردة لمختلف القصص التي يمكن أن تصادف الإنسان في حياته اليوميّة، في طابع فنيّ جماليّ مشحونة بالقيم في رسائل وعظية تربويّة ساخرة لكنّها هادفة، هي نقد بناء موجّه لفئة الأطفال وللأجيال الصّاعدة قصد تنشئتهم تنشئةً سوّيّة صالحة.

2.2 سيميائية عنوان "ديوان الأطفال":

يتكون العنوان من كلمتين فقط: "ديوان" و"الأطفال"، حيث يعتمد السّائحي عناوين قصيرة على غرار عنوان كتابه: "ألوان بلا تلوين" وهذا لغاية بلاغية جمالية من جهة وهي الإيجاز، وغاية تبليغية من جهة أخرى تماشيا مع مستوى الفئة التي يتوجه إليها ديوان السّائحي وهي فئة الأطفال.

1.2.2 المستوى المعجمي:

جاءت لفظة "ديوان" في المعاجم العربية بمعنى: "الديوان: مجتمع الصحف... وفي الحديث: لا يجمعهم ديوان حافظ، قال ابن الأثير: هو دفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء. وأول من دون الديوان عمر، رضي الله عنه، وهو فارسي معرب." ²²

2.2.2 العنوان على المستوى التركيبي:

يتركب العنوان من مبتدأ: "ديوان" معرف بالإضافة: "الأطفال"، لتبيان الفئة المستهدفة من هذا الديوان، وجعل العنوان على الغلاف محاطا بدائرة مغلقة للتأكيد على خصوصية هذه الفئة. والديوان عموماً هو ما يجمع تلك الأناشيد والقصائد المعبرة عن مواضيع وتيمات واهتمامات تخص شريحة بعينها ذات النزعة نفسها، وهي شريحة الأطفال وكل ما يمكن أن يتعلق بهم. وينسجم هذا التنوع والثراء مع صفحة الغلاف الملونة بعدة ألوان مشفوعة بصور مختلفة لمجموعة من الأطفال يمارسون هواياتهم وما تتطلبه طفولتهم من لعب ودراسة واكتشاف وتنمية لحسهم الديني والأخلاقي....

3.2.2 العنوان وعلاقته بالغلاف:

اختار الكاتب على أن يكون عنوان الديوان هو الآخر متعدد الألوان، ولافتا للنظر لشدة انتباه الطفل، فالأطفال ينجذبون إلى كل ما هو ملون ويبتهجون له، ويعد التلوين من أكثر الهوايات التي يمارسونها منذ سنوات عمرهم الأولى.

تفتح دائرة العنوان صورة لطفل يقفز في دلالة على حب الاستطلاع والمغامرة المعروفة لدى فئة الأطفال، و"ديوان الأطفال" مدعاة لاستقطاب فضولهم لاكتشاف ما تحويه صفحاته.

في الصفحة الخلفية للكتاب تصبح الدائرة أكثر اتساعا وتلوّنا كاشفة عن خبايا العنوان وأهداف الديوان المتوخاة من الكاتب للطفل المتلقي وهي المتعة والإفادة في آن واحد فكأن الديوان جاء مكتملا لاحتياجات الطفل، كما جاءت صفحة الغلاف منسجمة مع دلالات عنوان الكتاب ومع أهداف الكاتب من خلال زخم الصور والألوان الماتعة.

نجد في أسفل الدائرة عرضا متنوعا لصور الأطفال من مناطق مختلفة: صحراء، ثلج، غابة، لإبراز اختلاف انتماءات الأطفال وتشابههم في الآن ذاته في حب اكتشافهم للعالم وانسجامهم مع الطبيعة، إذ ينتقل هذا التنوع لمتن الكتاب.

4.2.2 العنوان وعلاقته بالمتن:

يقابل القارئ (الطفل) عند فتح الصفحة الأولى من كتاب "ديوان الأطفال" واجهة ملونة أيضا تحمل صورة لمجموعة من الأطفال يقرؤون أو ينصتون لطفل وهو يقرأ عليهم كتابا، في استراتيجية بصرية تدفع الطفل إلى ممارسة فعل القراءة نفسه مع كتاب: "ديوان الأطفال". وفي الصورة الثانية رسومات لمشاهد احتفالية بأيام دينية معبرة عن مظاهر البهجة والفرح تجذب الطفل للاطلاع على ما يلي من الصفحات.

أما علاقة العنوان بالمتن في ملخص الكتاب فعلا مواضيع شتى يحفل بها المتن؛ إذ يتناول تقريبا كل جزء من جوانب حياة الطفل على صعيد الأسرة والمدرسة والمجتمع والوطن والأمة، حيث تحفل الأناشيد برسائل تربوية، تعليمية، دينية، وطنية، اجتماعية...

سطع اسم السائح ولمع أكثر بإصداره "ديوان الأطفال"، إذ لقيت قصائده صدى في المدارس التعليمية الابتدائية الجزائرية عام 1983، فعمل على أن يجعل من شعره سبيلا للوصول إلى أهدافه التربوية وتنمية القدرات الفكرية والعقلية للطفل الجزائري.

تضمن الديوان أربعة وخمسين قصيدة، يدور محتواها حول مواضيع الطفل وبناء شخصيته: بدءا من أهمية اللعب والتسلية، كنشيد الحديقة الساحرة، القطار، الدراجة... ليُلحقها بأناشيد إسلاميات محاولا بذلك ترسيخ تعاليم ديننا الحنيف كالنظافة والصلاة... ثم جاء بقصائد تبث الفرحة في النفوس كالعيد وابتسم، كما أدرج عدة أناشيد متعلقة بحب الطبيعة، وبالحث على التشجير، دون أن ينسى محور الحيوانات وضرورة الرفق بها، لينتقل إلى تلقين الطفل بعض الأناشيد المشيدة بمهنة النجار والشرطي والبناء... مُدرجا بعدها بعض النصائح كنشيد التوفير ونصيحة الأب، كما وقف عند أهمية طلب العلم والحث على الدراسة في قصائد عديدة منها: الكتاب، القلم، المدرسة، الجائزة... ليختمها بقصائد حماسيات، تحمل في طياتها الروح الوطنية والإنسانية، وتلبية النداء من أجل الحفاظ على وحدة الوطن والعروبة.

مادام المقام ضيق، سنقف عند المواضيع الأكثر تداولاً، التي عمل السائح على ترسيخ قيمها في نفسية الطفل، والتي نراها مهمة في حياته؛ كأنشودة الصلاة، وابتسم، عيد الأم، الشجرة اليابسة، الديك والتعلب، وصية أبي.

الصَّلَاة: الفريضة الثانية من أركان الإسلام، التي تُرافق المسلم طوال حياته، وهي أول ما يحاسب عليه بعد مماته، لذلك وُجب علينا تدريب الطفل عليها حتى ترسخ في سلوكه، وهذا ما أوصانا به رسولنا الكريم وعملا بما جاء في تنزيله الحكيم، قوله تعالى: ((أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)) العنكبوت الآية 45. وفي ذلك يقول السَّائِحِي:

حافظ على الصلاة في سائر الأوقات
فهى على الدوام قاعدة الإسلام
فرض على العباد في سائر البلاد
تاركها كالمُجرم يُعدُّ غير مسلم²³

يدعو الكاتب للحفاظ على الرُّكن الثاني من أركان الإسلام، مُستعملا في ذلك أسلوب الترغيب دون الترهيب في ذلك مادام الخطاب موجّه إلى فئة الأطفال، مازجاً بين الأسلوبين الخبري والإتشائي، كما استعمل التشبيه مفصل، إذ اعتبر الشطر الثاني "يُعد غير مسلم" ووجه الشبه.

أمّا في محور الأسرة والأعياد، فنتوقّف عند قصيدتين متقاربتين من حيث المعاني المرتبطة بالأمومة، إذ خصّ الأولى للأم البيولوجيّة للطفل فأسمّاها بعيد الأم، والثانية ارتبطت بالأرض الطيبة أي الوطن الأم والتي عنونها بابتسم.

أولى السَّائِحِي أهميّة للأم دون غيرها من أفراد الأسرة، كيف لا وهي التي أوصانا بها الله ورسوله الكريم، ومنه وجب على الطّفل أن يعرف قدر والدته ومكانتها في الأسرة والمجتمع، فاتّخذ محمّد الأخضر السَّائِحِي من عيد الأم مناسبة للإشادة بدورها من تربية وتعب وسهر... فصور تلك العواطف التي تغمر بها أبناءها دون مقابل، وكان ذلك على لسان الطّفل، قائلا:

عيد أمّي خير عيد خير يوم في حياتي
أنا لولاها لجفّت في شفاهي بسماتي
أنت يا أمي شفائي من سقامي ونجاتي
كم تألمت لأجلي في الليالي الحالكات²⁴

عبّر الشاعر عن مشاعره بكل صدق وشفافية، ليظلّ هو الابن البار بوالدته، فجاءت القصيدة مشحونة بمعاني الحبّ التي رغب السّاحي ترسيخها في شخصيّة الطفل. أمّا عن قصيدة ابتسم فقد تناولت البعد الوطني المحمل بطابع الحماسة، في محاولة لترسيخ قيم الوطنيّة في شخص الطفل، والتي مطلعها:

ابتسم فالعيد هلاً وهو بشر وابتسام
وهلال النّصر هلاً في حمانا... يا سلام
فابتسم²⁵

جاءت القصيدة على شاكلة ترنيمة غنائية، غلب عليها فعل وطلب التّبسم، مُتماشياً وروح الطّفلة المفعمة بالعرفان والاحتفاء، كما غلبت عليها أفعال الحماسة لتبعث في روح الطّفّل مضامين مبطنة، مُكرّسة لأهميّة المبادئ الوطنيّة، موجّهة إلى ذهنيّة الطّفّل للتعرف على ذاكرة التاريخ المجيد للوطن.

اهتمّ السّاحي في ديوانه بالطّبيعة، أين نظم فيها قصائد كثيرة ومتنوّعة، قدّمها للأطفال في لوحات فنيّة تُنمّي الإحساس بالجمال. الطّبيعة هي الفضاء الواسع الذي يجد فيه الطفل حريّته في ممارسة ألغابه فهي عالمه السّاحر، وفي ذلك اخترنا قصيدة الشجرة اليابسة، التي كان مطلعها:

في ربوة عالية بعيدة رأيتها شامخة سعيدة
أغصانها وارفة الظلال وزهرا يفتن بالجمال
وبعد مدّة مضت - طويلة رأيتها عارية ذليلة²⁶

تمتعت هذه القصيدة بحسّ وصفي دقيق، يُنمّي عقل الطّفّل ويُلَفّت انتباهه، من خلال توظيف حقل معجمي فصيح ومتنوّع بين الجزئيات والتفاصيل، التي تُظهر الصورة الحقيقيّة لمظاهر الطّبيعة والتّحوّل السّلبي إزاء إهمال الجانب الإيكولوجي الذي يعيش فيه الطّفّل، فاتحة أفقه على ضرورة حماية الغطاء النّبّاتي، وضرورة ترسيخ الانسجام بل المؤاخاة مع الطّبيعة، وهذا ما تجلّى لنا في نهاية القصيدة مع نصيحة الأب التي قدّمها للابن (إياك أن تؤذي ما عشت الشجرة *** فالولد العاقل لا يرضى الضّرر).

وبهذه الطريقة المُشوَّقة والمُحفَّزة، يغرس السَّاحي في الطَّفل قيم حبِّ الشَّجرة والطَّبيعة، فيجعله يعتبر من خلال مقارنة ذهنية بين صورتين متضادتين؛ الجمال والقبح، أي الخير والشر.

ومن الأساليب التي اعتمدها السَّاحي في كتاباته الموجهة للطفل، اعتماده على أسلوب القصة الشَّعرية، منتهجاً في ذلك أسلوب أحمد شوقي، والتي تحمل الكثير من القيم والعبر، ففي قصيدة الديك والتَّعلب مثلاً قوله:

كان ديك في قمامه باحثاً يبغي طعامه
جاهداً في السَّعي والليل أتى يزجي ظلامه
وإذا التَّعلب يعدو طائراً مثل الغمامة²⁷

القصة رواها الشَّاعر للأطفال لعمق معانيها؛ إذ تضمَّنت حكمة أراد الكاتب المُربي غرسها في كيان الطفل، لينشأ على راحة العقل ويُنمِّي فيه الذَّكاء وليوقظ مواطن الفطنة، وهو ما أكَّده البيت الأخير من القصيدة: (لو كنت حكيماً *** كنت أحكمت الكمامة).

الحكمة التي أراد الشَّاعر أن يبلِّغها للنَّشء هي: أن بينك وبين تحقيق أهدافك خط رفيع؛ فإما أن تتمسَّك بالهدف وتمضي قدماً مواجهها للظُّروف والصَّعاب فتتجح، أو تُفلته وتستسلم لأنَّفه الأسباب وهذا ما يتعلَّق بمدى الصَّبر والثَّقة بالنَّفس. هي حكمة وجب التَّدبُّر فيها وأخذ العبرة منها ليس عند الصَّغار فحسب، بل حتَّى عند الكبار.

كلُّها أدوار حيوانية، تعكس مفاهيم تعليمية تصقل شخصيَّة الطَّفل كالحكمة وحسن التَّصرف عند الأزمات، وكان كلَّ ذلك بأسلوب شيق وبلغة فصيحة تُثري الرِّصيد اللُّغوي للطفل.

ختم الشاعر محاور ديوانه الموجه للأطفال، بمحور حماسيات، أين وقع اختيارنا على قصيدة "وصية أبي"، وهي من النصوص التَّربويَّة التي خصَّها الشاعر للأب وأسند تربية الطَّفل له، رغم أنَّه لم ينل من الاهتمام والتَّأليف ما حظيت به الأم، فيها يوصي الطَّفل على لسان الأب، بهدف غرس روح حبِّ الوطن وتعميق الشَّعور بالانتماء إليه، والدِّفاع عنه، والعمل على تطويره ودفع الأذى عنه.

فَكَرِيَ فَيَدْنِسُهُ أَجْنَبِيٌّ؟²⁸

5. الخاتمة:

182

الأهداف القيمة والتربوية بهوية متنامية عند الطفل وهي هوية الرسم والتلوين واكتشاف العالم والأشياء من خلال الألوان التي سبق وقلنا أنها تطبع هوية الأشياء وتميز بينها. يمكننا القول؛ إنّ خطابات السّائحي الموجهة للأطفال، كانت كلّها تهدف إلى ترسيخ مختلف القيم السّامية، التي أراد أن يكتسبها الطفل منها: الدّينية والأخلاقية، التّربوية والوعظية، وكذلك قيم تعزيز الشّعور بالانتماء إلى الوطن، معتمدا في ذلك الأسلوب السّهل البسيط، المتوافق والقدرات اللّغوية والإدراكية للطفل، حيث تتفاوت نسب الذّكاء والفهم فيما بينهم.

كانت أساليبه مختلفة من مقام إلى آخر، لكنّها تخدم بناء شخصيّة الطّفل وعالمه، فتارة تتخلّلها السّخرية الهادفة إلى تنشئة تنشئة سوية، وأحيانا بالاعتماد على أساليب التّرويح دون التّرهيب لشدّ انتباهه وتحبيبه في دينه وهويته، أسرته وبيئته، مدرسته وطموحاته؛ قيم أرادها الشّاعر أن تسري في دماء وعروق الطفل ليكبر بها ويشبّ عليها.

6. الهوامش:

- ¹ - بشرى البستاني، قراءات في الشعر العربي الحديث، 2002م، ط1، دار الكتاب العربي، ص34.
- ² - محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1433هـ/2012م، ص22.
- ³ - ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، المجلد الثالث عشر، دت، دط، بيروت، دار صادر، ص393.
- ⁴ - عباس محمود العقاد، أنا، 2012م، دط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص61.
- ⁵ - محمّد الأخضر السّائحي ألوان بلا تلوين، 2016، ط1، الجزائر، منشورات السّائحي، ص18.
- ⁶ - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، 1981، ط3، القاهرة، دار غريب للطباعة والنّشر، ص21.
- ⁷ - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص219.
- ⁸ - محمّد الأخضر السّائحي، ألوان بلا تلوين، ص19.
- ⁹ - محمّد الأخضر السّائحي، ألوان بلا تلوين، ص26.
- ¹⁰ - محمّد الأخضر السّائحي، ألوان بلا تلوين، ص30.
- ¹¹ - محمّد الأخضر السّائحي، ألوان بلا تلوين، ص38.

- 12- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 45.
- 13- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 55.
- 14- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 65.
- 15- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 73.
- 16- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 79.
- 17- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 87.
- 18- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 107.
- 19- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 116.
- 20- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 135.
- 21- محمد الأخضر السّاحي، ألوان بلا تلوين، ص 141.
- 22- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث عشر، ص 166.
- 23- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، 2016، ط2، الجزائر، منشورات السّاحي، ص 24.
- 24- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، ص 32.
- 25- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، ص 34.
- 26- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، ص 46.
- 27- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، ص 64.
- 28- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، ص 102.

7. قائمة المراجع:

- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، المجلد الثالث عشر، دت، دط، بيروت، دار صادر.
- بشرى البستاني، قراءات في الشعر العربي الحديث، 2002م، ط1، دار الكتاب العربي.
- عباس محمود العقاد، أنا، 2012م، دط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- محمد الأخضر السّاحي ألوان بلا تلوين، 2016، ط1، الجزائر، منشورات السّاحي.
- محمد الأخضر السّاحي، ديوان الأطفال، 2016، ط2، الجزائر، منشورات السّاحي.
- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1433هـ/2012م.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، 1981، ط3، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر.